

"كشّافُ" الزّمخشري في الميزان التقدي للإمام السّكّوني (ت 717هـ/1317م)

Al-Zamakhshari's 'Kashshaf' in the Critical Balance of Imam Al-Sakuni
(d. 717 AH/1317 CE)



أ.د. أحمد بوسعيد *

جامعة أحمد دراية، أدرار

مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا

ahm.boussaid@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2025/09/17 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النّشر: 2025/12/16



ملخص:

لئن كان بعض المغاربة قد نبّهوا على مُتضمّنات تفسير "الكشّاف" مصنّف جار الله الزّمخشري عَرَضًا، فإنَّ الإمامَ أبا علي عمر السّكّوني المالكي (ت 717هـ/1317م) أصيلَ إشبيلية نزيلَ تونس نظرَ إليه شَرًّا، وأخذته الحميّة المذهبية، فاشتغل على نقدِهِ، وتبيان حسناته وسيّئاته، مقارِعًا ما ذهب إليه الزّمخشري؛ حُجَّةً مُججَّةً وُبرهانًا يُبرهان.

تسعى هذه الورقة إلى استجلاء مواقف الإمام السّكّوني التونسي من تفسير "الكشّاف" في شِفهِه الكلامي، حين ضَمَّن مصنّفه "التمييز لِمَا أودعه الزّمخشري من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز" ما يُحيل إلى إثبات تكرار الزّمخشري "اعتزاله" مع آيات القرآن الكريم، وألحق الدلائل والردود مع كلّ شبهة اعتزال، بأسلوبٍ جدلي علمي وتوجيهٍ حجاجي عقلاني.

الكلمات المفتاحية: الزّمخشري؛ الكشّاف؛ السكّوني؛ الاعتزال؛ المغرب الإسلامي.

Abstract:

Although some Maghrebs have pointed out the implications of the interpretation of 'Al-Kashshaf' by Jar Allah Al-Zamakhshari incidentally,

* المؤلّف المرسل

Imam Abu Ali Omar Al-Sakuni Al-Maliki (d. 717 AH/1317 CE), originally from Seville and residing in Tunisia, regarded it with a critical eye, driven by doctrinal zeal. He engaged in critiquing it and clarifying its merits and faults, countering what Al-Zamakhshari argued; providing evidence for evidence and reasoning for reasoning.

This paper seeks to elucidate the positions of Imam Al-Sakuni from Tunisia regarding the interpretation of 'Al-Kashshaf' in its theological aspect, as he included in his work 'Al-Tamyiz Lima Awda'a Al-Zamakhshari Min Al-I'tizal Fi Tafsir Al-Kitab Al-Aziz' what references Al-Zamakhshari's repeated 'I'tizal' with verses of the Noble Quran, and he appended evidence and responses to every suspicion of 'I'tizal' in a scientific dialectical method and rational argumentative direction.

key words: Al-Zamakhshari; Al-Kashshaf; Al-Sakuni; Al-I'tizal; Islamic Maghreb.

مقدّمة:

يُعتبر تفسير الإمام جاز الله الزّمخشري (ت538هـ/1143م) الموسوم: "الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" أحد أهمّ النصوص المرجعية في مجال بلاغة آي الذكر الحكيم؛ حتى صار هذا الكتاب عمدةً وسنداً لمن جاء بعد، ونحاً نحوه آخرون مستلهمين من أفكاره وعباراته. والكشّاف يعدّ أول كتاب في التفسير كشف لنا على سرّ بلاغة القرآن، وأبان لنا عن وجوه إعجازه، في أسلوب أدبيّ ممتع لا يتفق لغير الزّمخشري إمام اللغة والبيان والإعجاز في التفسير. كان جاز الله محمود بن عمر الزّمخشري (ت538هـ/1143م) نسيج وحده في زمانه، من خلال أسلوبه البلاغي الإعجازي في مصنّفه "الكشّاف"؛ وهو سلطان هذه الطريقة البلاغية بلا منازع في رأي المؤرّخ ابن خلكان. لذا فقد طارَ كتابه في أقصى المشرق والمغرب، وافتتن به أهل البيان والبلاغة ببلاد المغرب الإسلامي، وبلغ في نفوس العلماء مبلغاً عظيماً، ولا أدلّ على ذلك من أنّ شروحه وتعليقاته ومختصراته والردود عليه قد تجاوزت ستّة وثلاثين مصنّفًا.

لقد جنح الزّمخشري في كشّافه إلى إيلاء أهمية كبيرة لمبادئ العقل والإعجاز البلاغي، مما جعله يُعتبر ناجحاً للغاية، خاصةً في تفسير معاني الأوصاف والتشبيهات والاستعارات

الموجودة في القرآن الكريم. ومّا يعكس قيمة الكشّاف اعتناء الكثيرين به من المتقدّمين ومن المتأخّرين؛ فمن مختصرٍ له، ومن مُحقّقٍ عليه، ومن منتصرٍ له، ومن معارضٍ عليه.

رغم انفتاح المغرب الإسلامي - تاريخيًا - على أمّهات كتب اللغة والبلاغة والأدب ذات المرجعيات الاعتزالية منذ القرن 03هـ/09م، من قبيل صنعة المبرّد والجاحظ وغيرهما؛ إلّا أنّ الوضع قد اختلف مع غلبة المدرسة الأشعرية نهاية عهد المرابطين في القرن 06هـ/12م، وهو زمن ورود "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لجار الله محمود بن عمر الزّمخشرّي (ت538هـ/1143م) إلى ذلك الصّقع. لذلك فقد انبرى العديد من علماء إفريقية والمغرب والأندلس إلى مجادلة الزّمخشرّي في "كشافه"، والتشكيك في حقيقة مضامينه العقديّة؛ بدءًا بمعاصره القاضي عياض، مرورًا بالفقيه ابن زرقون، ثمّ العلّامة ابن خلدون، وصولًا إلى الحافظ المقرّي التلمساني.

من العلماء المغاربة الذين تصدّوا للكشاف تقديمًا ونقدًا وتصوييًا الإمام أبو علي عمر السّكّوني (ت717هـ/1317م)، التّونسي دارًا وقرارًا الإشبيلي أصلًا ومحتدًا؛ في تصنيفه الشهير: "التميز لما أودعه الزّمخشرّي من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز"، وفي "مقتضب التميز" كذلك. حيث انبرى الإمام السّكّوني لدحض ما خالط الأشعرية من أفكار المعتزلة وأتراهم؛ وسعى إلى إعمال المنطق في نقده، وتدعيم تصويياته بأسس التوحيد والعقيدة التي خصّص لها مقدّمة جامعة مانعة، دون أن يوغل في مهاوي الخلاف غير المجدي، أو يّحيد عن سكة المنطق التي بنى عليها ملاحظاته.

في هذا الإطار يندرج إشكال هذه الورقة؛ من حيث قدرة السّكّوني على الموازنة بين النّقد العلمي البناء لكشّاف الزّمخشرّي من جهة، وبين الارتباط بمتطلبات المرجعية المالكية الأشعرية من جهة أخرى. وإلى أيّ مدى توصّل السّكّوني إلى استقرار المآخذ التي بنى عليها نقده لكتاب الكشّاف، موازاةً مع العرفان بالنبوغ اللغوي البياني للكشّاف، وتصدّره بقية التفاسير القرآنية.

المبحث الأول

المغاربة... و"الاعتزال"

لم يلقَ علمُ الكلام بالمغرب من التشجيع والأنصار ما لقيه في المشرق، لأنَّه لم يكن مرغوبًا في بلادٍ تقاذفها الاضطراب السياسي والاجتماعي لفترات متتالية، فكان أهلُه منبوذين من طرف علماء السُّنَّة الذين ناصبوا العداة لكلِّ اتجاهٍ منحرفٍ عن منهجهم. رغم ذلك كلِّه كانت المعتزلة الفئة الكلامية التي كسرت الحظر، وتسَلَّلت عبر روافد الرجال والرحال إلى حواضر المغرب الإسلامي منذ القرن 02هـ/08م.

المطلب الأول: الموردُ المبكر للاعتزال

كانت جهود دعاة المعتزلة العابرة للدول القائمة المنفذ الرئيس لإطلال الفكر المعتزلي على بلاد الغرب الإسلامي، حيث كانت عادتهم إرسال الدعاة والرسل إلى الأمصار لدعوة الناس إلى مذهبهم. دون أن ننسى عاملاً مهمًّا وهو اعتناق بعض أمراء الأغالبة في إفريقية الاعتزالَ مذهبًا رسميًا في وقتٍ مبكرٍ نسبيًّا، مضاهاةً للخلفاء العباسيين المشجعين للاعتزال ورجالاته، وعلى رأسهم: المأمون، المعتصم والواثق.

ومعروف أنَّ أهل المغرب الإسلامي - والأندلس جزء حضاريٍّ منه - كانوا يقاومون كلَّ فكرٍ حادٍّ - في نظرهم - عن منهج أهل السُّنَّة، مهما كان مصدره، وعلى هذا قاوموا الفكر الخارجي والشيوعي وكذا الاعتزالي. رغم أنَّ العلامة عبد الرحمن بن خلدون يُنَبِّه إلى نسبة التعصب العقدي بالمغرب؛ مستشهدًا بأبياتٍ لأبي القاسم الرُّوحِي، من شعراء أهل تونس، حين عمَّ الهرج والوباء، والجدال والمراء¹:

وإنَّما	مَذْهَبِي	وَدِينِي	مَا	دَامَ	لِلنَّاسِ	أَوْلِيَاءُ
إِذْ لَا	فُصُولَ	وَلَا أُصُولَ	وَلَا	جِدَالَ	وَلَا رِيَاءَ	
يَا	أَشْعَرِي	الزَّمانِ	إِنِّي	أَشْعَرِي	الصَّيْفُ	وَالشِّتَاءُ
لَوْ	حُدِّثَ	الْأَشْعَرِيُّ	عَمَّنْ	لَهُ	إِلَى رَأْيِهِ	انْتِمَاءُ
لَقَالَ	أَخْبَرُهُمْ	بِأَيِّ	مِمَّا	يَقُولُونَهُ	بَرَاءُ	

لم تخلُ مواطنُ الفكر بالغرب الإسلامي من صور الاعتزال منذ بواكير ظهوره بالشرق في القرن 02هـ/08م، واحتضنت أفكار الاعتزال ورّاده خلال عقود من قرون متتالية، إلى غاية القرن 04هـ/10م حيث تسيّدت الأشعرية الفكر المغاربي، وأزاحت الفكر الاعتزالي في معرض سعي الدولة القائمة إلى توحيد المرجعيات الفقهية والحيلولة دون تسريب ما من شأنه التشويش على عقائد العوام². يجب أن نأخذ في الاعتبار انشقاق الشيخ أبي الحسن الأشعري (ت324هـ/936م) وانقلابه على المعتزلة بعد أربعين سنة من الصّحبة والوقوف على الدخائل؛ متّبعاً منهج التوسّط بين العقل والتّقل، وعدم التماذي في التّأويل.

يرى ابنُ خلدون (ت808هـ/1406م) أنّ الخلاف بشأن صفات الألوهية والكمال إنّما ولج بلاد المغرب مع مجيء المعتزلة، الذين أثبتوا تلك الصفات أحكاماً ذهنية مجرّدة، وجعلوا الإنسان خالفاً لأفعاله. وقد درج على ذلك الأول والآخِرُ منهم، أي من تقدّم ومن تأخّر. وأنّ الغلبة على مذهبهم إنّما تمّت بالحِجاج الأشعري، بعدما انتشرت آراء الشيخ أبي الحسن الأشعري مشرقاً ومغرباً³. لذلك شاع في الأدبيات الكلامية المغاربية أنّ المعتزلة قد أفادوا - بطريقة غير مباشرة - فقهاء السنّة المالكية بآليات المناظرة واستحضار العقل والمنطق، حتى قيل إنّ أهل السنّة قد تتلمذوا على أيدي المعتزلة في الحِجاج والاستدلال.

المطلب الثاني: "كشّاف" الزّمخشرّي وقابليّة الشّيوخ

كان الإمام - محلّ المقال - أبو علي عمر السكّوني التونسي قد دعا مراراً إلى الاقتداء بأئمة المتكلمين من أهل السنّة لا غير، الدّالّين على الدين القويم، والدّاعين إلى المنهج الحقّ المبين، كالشيخ أبي الحسن الأشعري صاحب كتاب "المتحرّي في تفسير القرآن الكريم"، المجموع في أربعمئة سِفَرٍ، وغيره من أئمة مذهب أهل السنّة والجماعة⁴.

اشتهر الشيخ الزّمخشرّي⁵ بشكلٍ رئيسٍ في الأوساط الفكرية بتفسيره "الكشّاف"، وكان قد بدأ في كتابته عام 526هـ/1132م وأكمله في عام 528هـ/1134م. تميّز

تفسير "الكشاف" باستخدام الزّمخشرّي الشامل للموارد اللغوية في تفسيره، علاوة على ذلك، أولى أهمية كبيرة لمبادئ العقلانية، مما أظهر نهجًا دقيقًا ومقنعًا في تفسير الأوصاف والتمثيلات والاستعارات الواردة في القرآن الكريم⁶.

لكنّ كشّاف الزّمخشرّي يتميّز عن بقية كتب أهل الاعتزال بكونه متفرّدًا في طرحه اللغوي والإعجازي، يكاد يخلو من الحشو والتطويل، وأيضًا من القصص الإسرائيلي الغالب على ما سواه، معتمدًا في بيان المعاني على لغة العرب وأساليبهم في الخطاب، مشوّفًا قارئه جاذبًا فكره وانتباهه، بلزوم السؤال: (إِنْ قُلْتَ) ولزوم الجواب: (قُلْتُ)، بغرض التشويق في التعليم وترسيخ المعاني في الصدر. ولا غرو. حينئذ. أن يُعلن الزّمخشرّي بنفسه بأن تفسيره القرآني لم يسبقه إليه أحدٌ في حسن تركيبه وبراعة أسلوبه⁷. ولا عجب فقد أثنى الزّمخشرّي بنفسه على تفسيره في بيتين شهيرين، تداولهما كلٌّ من ترجم له⁸:

إِنَّ التّفاسيرَ فِي الدُّنْيَا بِلاَ عَدَدٍ وَليسَ فِيها لَعَمريَ مثْلُ كَشّافِي
إِنْ كُنْتَ تَبغي الهُدَى فَالزَّمْ قِراءَتَه فَالْجَهْلُ كالدَّاءِ وَالْكَشّافُ كالشّافِي

من لطائف أخبار الاعتزال بالمغرب أنّ الفقيه المالكي ابن زرقون كان ينعى على أبي العباس الحضرمي الإشبيلي جلبه مخطوط الكشاف إلى الغرب الإسلامي، بعد أن نسخه من أصلٍ محبّسٍ مسموعٍ على مصنّفه في رحلته الحجّية إلى المشرق⁹. رغم انتصاب الأشعرية ببلاد المغرب واقعًا مذهبيًا لا مناص عن اتّباعه منذ القرن 05هـ/11م؛ غير أنّ ذلك الأثر البلاغي لجار الله الزّمخشرّي المعتزلي - كما كان يحلو له الانتساب - غلب على ما تضمّنه تصنيفه من مناكفات صريحة لأهل السُّنّة، خاصّة في البيتَيْن اللّذين انتصر من خلاهما لمذهبه التجسيمي التشبيهي، وعرّض فيهما بأهل السنة والجماعة، المكتفين بالقول في رؤية الباري - عزّ وجلّ -: "بلا كيف"¹⁰:

لِجَماعَةٍ سَمَوْا هَواهُم سُنَّةً وَجَماعَةً حُمِرُ لَعَمريَ مُوكَفَه
قَدْ شَبَّهوه بِخَلْقِه وَتَخَوَّفوا شُنْعَ الوَرى فَتَسَتَّروا بِالْبَلْكَه

المبحث الثاني

"الزّمخشرّي" في أدبيات الكتاب المغاربة

سبق المصريون أقرانهم المغاربة إلى الردّ والتنبيه على ما تضمّنه الكشّاف من انحرافٍ وميلٍ باللفظ القرآني إلى مذهب أهل الاعتزال، وكان السّبق في ذلك لعالم الإسكندرية وقاضيهما وخطيبها الإمام أحمد بن محمد المالكي المعروف بابن المنير (ت683هـ/1284م)، حين ألّف كتابه "الانتصاف من صاحب الكشّاف". وكذا فعل الحافظ جلال الدين السيوطي (ت911هـ/1505م) لاحقاً؛ حين صنّف كتابه "التحجير في علم التفسير".

المطلب الأول: "الكشّاف" بين ظهرائي المغاربة

رغم التوجّس الأولي فقد أمكنَ لكتاب الكشّاف أن يشيع بحواضر المغرب والأندلس بعد وفاة مؤلّفه بعقودٍ قليلة، حيث كان إدخاله عبر رحلة حجّ لأعلام أندلسيين أواخر القرن 12هـ/1206م¹¹. والأمر لا يحتاج إلى عظيم إمعان؛ ليستجلي المرء مواطن الحشو الاعتزالي في الكشّاف، فهو كتاب اعتزالي بدرجة عالية؛ بدءاً بعنوانه وصولاً إلى التأويلات والأقاويل التي ليست في الحقيقة سوى أقاويل المعتزلة في الكلام.

كان الزّمخشرّي معتدّاً بخلفيته الاعتزالية؛ حيث نُقل عنه أنّه كان يُعرّف نفسه لمن يسأل عنه بعبارة: "قُلْ له أبو القاسم المعتزلي"، وأول ما صنّف كتابه البديع "الكشّاف" استفتحه بالقول: "الحمد لله الذي خلق القرآن"، قبل أن يُعيد صياغة مبتدأ تصنيفه، نزولاً عند رغبة أصحابه، مستخدماً التورية¹²!

لذلك احتقّى ابنُ خلدون بالتصنيف الأول الذي ضاهى كتاب الزّمخشرّي رأساً وتأصيلاً، أو نقدًا وتنبيهاً، حين وصل وشاع في بلاد المغرب. يقول ابن خلدون: "ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي¹³ من أهل تويريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزّمخشرّي هذا وتتبع ألفاظه وتعرّض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تُزيّفها، ويبيّن أنّ البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على

ما يراه المعتزلة. فأحسنَ في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كلّ ذي علمٍ عليّم"14.

نقل الحافظ المقرّي التلمساني (ت1041هـ/1631م) في "أزهاره" حديث غير واحدٍ ممّن لقيهم، أخبروه أنّ القاضي عياض اليحصبي (ت544هـ/1149م) لما بلغه امتناع الزّمخشري عن إجازته التي طلبها منه، ردّ على ذلك - دون ضبط العبارة والتأكّد منها - قائلاً: "الحمد لله الذي لم يجعل عليّ يدًا لمبتدعٍ أو فاسقٍ"15! وكان المقرّي التلمساني يُقرن ذكر الزّمخشري في بعض تصانيفه بالقول: "ساحه الله".

المطلب الثاني: الردّ المغربي... المعرفة مقابل المعرفة

لم يخفَ على نظر الدّارسين للكشّاف من الأعلام المغاربة انتصار الزّمخشري للمقالة المذهبية في كثير من تخريجاته اللغوية والبلاغية؛ فانبرى كثير من العلماء المنتسبين للمالكية الأشعرية إلى الردّ المعرفي الصّرف عليه، تمامًا مثلما فعل نظراؤهم المشاركة، وقد رأينا ردّ شرف الدين الطيبي الذي أقع ابن خلدون وأمثاله، من تلك الردود ما يلي16:

. "حاشية على الكشف" لأبي العباس أحمد بن محمد ابن البناء المراكشي (ت721هـ/1321م)، كشف فيها عن مواضع الاعتزال مع البسط والرد.

. "اختصار تفسير الزّمخشري" لمحمد بن علي بن العابد الفاسي الغرناطي (ت762هـ/1360م) أزال منه شوائب الاعتزال.

. "حاشية على الكشف" لأحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأزدي التونسي، المعروف بـ «القصار» (كان حيًّا بعد سنة 790هـ/1388م).

. "نظم في الرد على البيتين الذين ذكرهما الزّمخشري في الطعن على أهل السنة" لمحمد بن عبد الرحيم ابن يجيش التازي (ت920هـ/1514م).

. "تقييد في نقد بعض مقالات صاحب الكشف" لأبي العباس أحمد بن مبارك السجلماسي اللّمطي (ت1156هـ/1743م).

. "اعتراض على الزمخشري في الكشاف" لأبي عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد ابن كيران الفاسي (ت1227هـ/1812م).

. "تقايد على الكشاف" لأبي الحسن علي بن محمد ابن جلون الكومي الفاسي (ت1292هـ/1875م).

. "حاشية على الكشاف للزمخشري" لرضي الله محمد المختار بن علي السوسي (ت1383هـ/1963م).

على ذكر البيتين الذين "تندّر" بهما الزمخشري على من يدعون غيبية "الكيف"؛ فقد تتالت الردود منظومةً تُعارضهما، وتقذح فيمن ينفون الصفات عن الذات. كان جلُّ الردود من نظم علماء تونس وقضاها؛ من ذلك أبيات للإمام القاضي أبي عبد الله محمد بن علي الأجمي التونسي القاضي الأنكحة، ومن ذلك أيضًا بيتان منسوبان للقاضي عمر بن عبد الرفيع¹⁷:

جَوْرِيَّةٌ وَتَلَقَّبَتْ عَدْلِيَّةٌ وَعَنِ الصَّوَابِ عُدُوْهَا لِلسَّفْسَفَةِ
نَفَقُوا الصِّفَاتِ وَعَطَّلُوا وَتَجَسَّمُوا وَيُكَايِرُونَ وَشَأْنُهُمْ جَلْبُ السَّفَةِ

ومن العلماء المغاربة الذين تصدّوا للردّ على المعتزلة، إثر وصول كتابات الزمخشري وغيره؛ الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق التلمساني، حيث استعرض بعض أفكارهم الفلسفية، متسائلًا عن السبيل لصرف هذه الفئة عن غيِّها - حسب توصيفه -¹⁸:

وَجَمَاعَةٌ عُرِفَتْ لَعَمْرِيَّ بِالسَّفَةِ وَتَمَسَّكَتْ بِضَالَالِ أَهْلِ الْفَلَسَفَةِ
عَدَلْتُ عَنِ النَّهْجِ الْقَوِيمِ فَلَقَّبْتُ عَدْلِيَّةٌ وَعُدُوْهَا عَنْ مَعْرِفَةِ
ضَلَلْتُ وَقَالَتْ لَنْ يُرَى رَبُّ الْوَرَى يَوْمَ الْجَزَاءِ فَأَلْزَمْتُ نَفْيَ الصِّفَةِ
هَذَا وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ زَلَّتْ وَكَمْ مِنْ مَذْهَبٍ ذَهَبَتْ بِهِ فِي مَتَلَفَةِ
كَيْفَ السَّبِيلُ لِصَرْفِهَا عَنْ غِيِّهَا وَالْعَدْلُ يَمْنَعُ صَرْفَهَا وَالْمَعْرِفَةَ

وبما أنَّ الحديث في البيت الأخير عن "الغي"؛ ها هو المقرئ التلمساني يزعم أيضًا أنَّ المغاربة خصوصًا - والسُّنة عمومًا - قد انتصروا على أفكار الزمخشري بالحجج البالغة، والردود المفحمة، بل لقد كسروا أمَّ رأسه ورأسَ شيعته بالحجارة الدامغة... فظهر الحقُّ وأهلُه، وارتفع غيُّ المبتدع وجهلُه¹⁹!

لقد قبل المغاربة ورودَ أفكار الزمخشري بقبولهم استقبال وتداول كتابه الكشاف، بوصفه في أول الأمر كتابَ لغة وبلاغة وبيان بالدرجة الأولى، كما فعلوا قبل ذلك خلال ثلاثة قرون مع كتب المعتزلة الأوائل في اللغة والنحو والأدب، وعلى رأسهم الأديبان الجاحظ والمبرِّد في القرن الثالث الهجري؛ والحال أنَّ الزمخشري رأس هؤلاء المعتزلة في عصره، لذلك كان الإقدام على الاطلاع على تفسيره أمرًا مستساغًا للنخبة منهم قياسًا على ما يمكن أن يُضيفه لحقل المعرفة المغاربية. فالتسريب الاعتزالي قد تمَّ من قبل، وإنما هذه موجة أخرى استثنائيًا لما سبق بشكلٍ مغاير.

لطالما وسم المعتزلة أنفسهم بأوصافٍ تدلُّ على أحوالهم في الجدل والمراء؛ وكأنيَّ بالإمام عمر السكوني يتهكَّم على وصف المعتزلة وأتراهم أنفسهم بالفئة الناجية! مفنِّدًا في حينه وفي موضعه تأكيد الزمخشري على تلك الصِّفة أو التسمية: "وقوله: من أفاضل الفئة الناجية العدلية - يعني شيعته المعتزلة - الفرقة الناجية هي بالموافقة لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وهم أهل السنة والجماعة"²⁰.

لا يمكن أن ن عزل تلك الردود والتعقيبات - على اختلاف درجتها - عن المناخ الفكري العام، المتميّز باستفحال ظاهرة التعصّب المذهبي والتحيز الطائفي، مشرقًا ومغربًا، حتّى لقد صوّر لنا الزمخشري نفسه بعضًا ممّا كان يرمي به كلُّ مذهب غيره من المذاهب، في أبياتٍ لطيفةٍ، جاء فيها²¹:

إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي لَمْ أَبْحُ بِهِ وَأَكْتُمُهُ كِتْمَانُهُ لِي أَسْلَمَ
فَإِنْ حَنْفِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي أُبِيحُ الطَّلَا وَهُوَ الشَّرَابُ الْمَحْرَمُ
وَأِنْ مَالِكِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي أُبِيحُ لَهُمْ أَكْلَ الْكِلَابِ وَهُمْ هُمْ
وَأِنْ شَافِعِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي أُبِيحُ نِكَاحَ الْبَنَاتِ وَالْبَنَاتُ تَحْرُمُ
وَأِنْ حَنْبَلِيًّا قُلْتُ قَالُوا بِأَنِّي ثَقِيلٌ خُلُوبِي بَغِيضٌ مُجَسِّمٌ
وَأِنْ قُلْتُ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَحِزْبِهِ يَقُولُونَ تَيْسٌ لَيْسَ يَدْرِي وَيَقْفَهُمْ
تَعَجَّبْتُ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَمَا أَحَدٌ مِنَ أَلْسِنِ النَّاسِ يَسْلَمُ

المبحث الثالث

ردود الإمام السكوني على الزمخشري وتصنيفه

ينتمي الإمام أبو علي السكوني إلى بيت علم وتأليف وفضل وتصنيف؛ إذ كان أعمامه وأجداده أهل علم ومعرفة بالأندلس مُبتدأً، وبتونس لاحقاً، وفي مقدمتهم والده أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني، حيث أُلِّفَ كتباً منها: "أربعون مسألة في أصول الدين" ²²، وكذا كان جدّه أبو الخطاب محمد، الذي امتلك خزانة كتب لا بأس بها، ضاع بعضها عند فراره من إشبيلية، عقب سقوطها سنة 646هـ/1248م، وإذ ذاك قرّر ابنه (والد المترجم) الهجرة إلى تونس والاستقرار بها ²³.

المطلب الأول: منهج الإمام السكوني في الردّ على الزمخشري

الفرع الأول: التكوين العلمي للسكوني وأثره على كتابته

ساهمت الأجواء العلمية التي عايشها وعايها الإمام السكوني في تبلور توجهه النقدي، وتكوين ملكته العلمية. ويذكر بعض من حقّق كتب السكوني أنّ هجرة عائلة السكوني من إشبيلية إلى تونس كانت في منتصف القرن 07هـ/13م، وهي الفترة التي أعقبت هزيمة الموحدين في معركة حصن العقاب، بما كان لها من الأثر السيء على كل من بلاد الأندلس والمغرب؛ إذ مثّلت بداية أفول الدولة الموحدية. ومن ثم فقد عاش

السكّوني في أكناف بيتٍ من بيوتات العلم الرائدة، وتشرب من معين المدرستين السكّونية الأندلسية والسكّونية التونسية في علم المنطق الكلام.

رغم غزارة علم أبي علي السّكّوني وأهمية تأليفه وتألقها منهجياً ومعرفياً، فإنّه لم يحظَ بترجمة تليق بمقامه في أمهات كتب التراجم والسير! وجُلّ ما ورد عنه لا يعدو أن يكون وصفاً مختصراً يتضمّن اسمه ونسبه وتخصّصه وبعض مؤلفاته. والسكّوني من العلماء الرّاسخين في العلم، الدّائنين عن أصول الدين وفروعه، امتاز منهجه الإصلاحي بالتزام بالموضوعيّة في الطرح، أثناء التصدي لتلك الانحرافات والأخطاء؛ من خلال عرض الرّأي المخالف كما هو، دون تصرّف أو توجيه. بل لم تمنعه أشعريته من انتقاد بعض الأشاعرة أنفسهم، إن اعترت كتاباتهم بعض الشوائب، مع التزام أدبيات النقد البناء. فمارس بذلك الإصلاح الفكري داخل المذهب الأشعري ذاته.

ترجم الفقيه المالكي أحمد بابا التنبكتي في حاشيته على ديباج ابن فرحون المالكي "نيل الابتهاج" ترجمة موجزة مقتضبة للسكّوني، رغم سعة علمه وإطلاعه وحرصه على تقصّي أسماء رجالات المذهب؛ حيث أحال عليه وعلى مصنّفه "التمييز"، قائلاً: "عمر بن محمد بن حمد بن خليل السكّوني أبوعلي؛ نزيل تونس الفقيه العالم العلامة السّني، له تأليف منها: التمييز لما أودعه الزّمخشرّي من الاعتزال في الكتاب العزيز، في سفين ووقف عليه"²⁴. وأضاف إسماعيل باشا البغدادي - وهو من الجامعين المتأخّرين - صفة: السكّوني الإشبيلي المقرّي²⁵، دون توضيح لنسبة المقرّي من أيّ صقع، أو لعلّه خطأ في التدوين.

لا يمكن إغفال طبيعة التّأليف لدى الإمام السكّوني، وميله لتدعيم ما تحطّط يده بالحجج والبراهين، خاصّة في الردّ على من يزعمون توظيف المنطق. يمكن أن نستشفّ ذلك من خلال تصنيفه لكتاب: "المنهج المشرق في الاعتراض على كثير من أهل المنطق"، ذكر ذلك في مقتضبه على "التمييز"²⁶. وقد أكّد البغدادي بأنّ تدوين السكّوني للمنهج المشرق إنّما كان على حاشية الكشّاف للزّمخشرّي، أي على حاشية الردّ على الكشاف وهي كتابه التمييز²⁷. وهذا الأسلوب لا يعتمده إلا الجهابذة من العلماء؛ إذ

يتطلب إلمامًا واسعًا بعلوم الشريعة، ومقالات المخالفين وأدلّتهم المعتمّدة، ويحتاج إلى فطنة وحكمة، ولا شكَّ أنّ أبا علي السكّوني ممّن توافرت فيهم هذه المواصفات، فهو صاحب كتاب: "عيون المناظرات"، الذي أظهر منهج صاحبه في تقرير عقيدة أهل السنة بأسلوب علمي فريد.

الفرع الثاني: ملامح وأبعاد الردّ العلمي للإمام السكّوني

صدّر السكّوني رده النّقدي بمقدّمة عميقة في التوحيد، كتبها أساسًا لجعلها مرجعيةً سليمةً، يرجع إليها من رامّ الولوج في بحر هذا الكلام²⁸. يمكن أن نستشفّ من مقدّمة كتاب التمييز التوجّه العام في ردّ السكّوني على الزّمخشري، ومنهجه العلمي في ذلك، من خلال تضمين تلك المقدّمة مختصرًا في أصول الدين من قطعيّات كلام المتقدّمين والمتأخّرين؛ بل لقد كفى القارئ عناء إدراك ذلك والغرض منه، في قوله: "... واضح المسالك، محرر المدارك... لتقع الإشارة على دلائله عند تكرار الزّمخشري اعتزّاله مع آيات القرآن؛ لئلا يطول الكتاب بتكرار الدلائل في الردّ عليه عند تكرار الاعتزال"²⁹.

لذلك جاءت المقدّمة المذكورة مطوّلة، مدعّمة بالشواهد والإحالات، كأنّها كتاب عقدي مستقلّ قائم بذاته، يمكن قراءتها والإفادة منها دون الحاجة إلى معرفة السياق الذي فرض وجودها، أو ما أحاط بها من فصول. وذلك نظرًا أنّ السكّوني كان قد أفرد للمناظرات التي تمّت بين رؤوس المعتزلة وأعلام السُنّة كتابه المذكور: "عيون المناظرات".

كان السكّوني ينتقل من آية قرآنية مفسّرة إلى أخرى بعد أن يعرض قول الزّمخشري بشأنها، معقبًا تعقيبًا مختصرًا، لأنّ الإيضاح قد تمّ في مقدّمة كتابه كما قال. لا ينفكّ الإمام السكّوني بيّن ضعف كلام صاحبه حين يقف على أمرٍ خلافي، أو يظهر من خلاله التعصّب لمذاهب المتكلّمين؛ ثم يصل إثر ذلك إلى بطلان نحوه في المصحّحات العقلية قطعًا، حين يجده يُخالف أو يعارض كلام الأئمة المتقدّمين، كالشيخ أبي الحسن والقاضي أبي بكر والأستاذ أبي إسحاق بن فورك والشيخ الجويني إمام الحرمين³⁰.

وحين ينتهي السكوني إلى تحقيق فكرته تأصيلاً يعاود التساؤل والاستغراب من جديد عن فكرة اعتزالية أخرى، يكون الزمخشري قد غلبها في تفسيره؛ فنبّه السكوني عليها قائلاً في مطلع إحالة جديدة: "وقوله:...". وهكذا فعل السكوني - مثلاً - مع كلّ آيات الصفات التي صرفها الزمخشري عن معناها، تحقيقاً لأصل التوحيد، وفراً من تعدّد القدماء في زعم المعتزلة، والشيء نفسه فعله مع أصل العدل، وغيره من أصول المعتزلة، التي نافح عنها الزمخشري في تفسيره.

نقل حاجي خليفة - في ترجمته - ردّ الإمام السكوني مع بقية الردود؛ غير أنّه نقل أيضاً موقف الإمام السبكي من كتاب التمييز، حيث أثنى على صاحبه، واصفاً إيّاه بأنّه تكلم في الإمام فخر الدين وغيره بما لا يُعابُ عليه عالم³¹. فقد كان السكوني حريصاً على الوصول أو الاستنتاج، بعد الانتهاء من إيراد براهينه وأقوال الثقات من الرجال، إلى ما اعتبره في محصّلة كلّ ردّ بطلان قول الزمخشري وشيعته من كلّ وجه.

وقد استدللّ الإمام السكوني بالمناظرة الشهيرة التي دارت بين الشيخ أبي الحسن الأشعري شيخ أهل السنة - حسب توصيفه - وأبي علي الجبائي البصري شيخ المعتزلة، فيما تقوله المعتزلة من وجوب رعاية المصلحة في حقّ الخالق، وكانت محصّلتها أن انقطع الجبائي عن المراء، ولم يجد جواباً. فعلم بتلك المناظرة أنّ أحكام ذي الكبرياء والجلال متعالٍ أن توزن بميزان الاعتزال³².

في الإطار ذاته يمكن إدراج شهادة المقرئ التلمساني الشديدة: "وقد تصدّى للردّ عليه من أهل السُّنة رضي الله عنهم جمٌّ وافر، وأبدوا ما يؤيّد مذهبهم الظافر، وتركوا المبتدع يحكُّ رأسه بغير أظافر!" كما أوردَ المقرئ التلمساني في أزهاره كذلك بعض التعقيبات الشعرية لأعلام مغاربةٍ على بيّني الزمخشري؛ منها أبيات معارضة للزمخشري منسوبة للإمام السكوني نفسه، محليّاً إيّاه بعبارة: الشيخ الإمام أبي علي عمر بن محمد بن خليل السكوني الأصولي رحمه الله. وهي أبيات تزواج بين القدح والعتب في آنٍ واحدٍ³³:

سَمَّيْتَ جَهْلًا صَدَرَ أُمَّةٍ أَحْمَدٍ وَدَوَى الْبَصَائِرِ بِالْحَمِيرِ الْمُؤَكَّفَةِ
وَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ شَبَّهَوْهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا فَتَسَتَّرُوا بِالْبُلْكَفَةِ
نَطَقَ الْكِتَابُ وَأَنْتَ تَنْطِقُ بِالْهَوَى فَهُوَ الْهُوَى بَكَ فِي الْمَهَاوِي الْمُتَلَقِّفَةِ
وَجَبَ الْحَسَارُ عَلَيْكَ فَاَنْظُرْ مُنْصِفًا فِي آيَةِ الْأَعْرَافِ فَهِيَ الْمُنْصِفَةِ
أَتَرَى الْكَلِيمَ أَتَى بِجَهْلٍ مَا أَتَى وَأَتَى شَيْوْخُكَ مَا أَتَوْا عَنْ مَعْرِفِهِ؟

المطلب الثاني: "التمييز" في مواجهة "الكشّاف"

قبل الحديث عن الإمام أبي علي عمر السكّوني وعرض أفكاره في الردّ على الكشّاف؛ جدير بنا التنويه إلى ردّ قريبه الإمام أبي بكر يحيى السكّوني (ت627هـ/1229م)، وذلك في كتابه "الحسنات والسيئات"، حيث انتقى فيه مستطرف غرائبه البيانية، وأبدى أيضًا فيه ما تضمّنه من سوء انتحاله³⁴. وكان مجلس يحيى السكّوني هذا في إشبيلية أحفل المجالس العلمية، وأخذ عنه كثير من الطلبة، بما في ذلك كتابه المذكور، الذي أبدى فيه مستظرف وروائع تفسير الزّمخشرّي البيانية في الكشّاف، وفي المقابل قرّن ذلك بمواطن ومناحي الاعتزال في التفسير ذاته³⁵.

الفرع الأول: عمل السكّوني في "التمييز"

كان والد أبي علي هو من ابتدأ تأليف "التمييز" في مدينة تونس، وبعد وفاته تكفل ابنه أبو علي بتكملته على خطى أبيه ونجلته في الكتابة؛ ذكر ذلك السكّوني بنفسه في كتابه "المختار من لحن العامة والخاصة"، حين حديثه عن غلبة الاعتزال على تفسير الزّمخشرّي، مصرّحًا: "وأما تفسير الزّمخشرّي فأكثره اعتزال؛ وفيه مواضع انتهى فيها إلى الكفر والعياذ بالله، وقد صنّفنا في الردّ عليه كتابًا سمّيناه بالتمييز بما أودعه الزّمخشرّي من الاعتزال في الكتاب العزيز، كان قد ابتدأه والذي رحمه الله، ثمّ منّ الله في تكميله على يدي، والحمد لله على ذلك"³⁶.

ولطالما تمسّك السكّوني بالقول بأنّ نصّح المسلمين أمرٌ واجبٌ على كلّ مسلم مكلف، وذكر أنّ كلّ ذلك قائم على ما حسّنه الشرع، وأنه لا خلاف بين أهل السنّة

والجماعة في منع كل إطلاق ما لم يرد به توقيف شرعي، إذا كان يوهّم ما لا يجوز ويقتضي ما يستحيل في حق الله تعالى أو يمتنع في حق رسله ودينه. ومما يُميّز "التمييز" عن غيره اعتماده منهج التقويم خارج المذهب الأشعري، وإن كان في بعض ورقاته المخطوطة التي تعدّت 263 ورقة كبيرة، قد اقتبس بعض المعاني والمباني من الانتصاف لابن المنير السكندري، رغم أنّه أدرج فيه ثلاث عشرة مسألة، معظمها مسائل خلافية بين الأشعرية والمعتزلة³⁷.

قام السكّوني بتجميع الآراء الاعتزالية التي ضمّنها الزّمخشرّي كشّافه، وقام بالردّ عليها استناداً إلى الدلائل والبراهين من الكتاب والسنة، وتتبع بين دقّات الكشف ما خبّأته عبارات الزّمخشرّي من مرجعيات الاعتزال وأصول أهلّه؛ لا سيّما ما يتعلّق بإنكار الصفات، ونفي رؤية الله - عزّ وجلّ - في الآخرة، والقول بأنّ القرآن مخلوق وليس كلام الله، وغير ذلك ممّا اشتهر به المعتزلة منذ بواكير مشيختهم، وشدّوا به عن أهل السنة والجماعة في المشرق والمغرب.

الفرع الثاني: مؤاخذات السكّوني على الزّمخشرّي

من نماذج معارضة أو مؤاخذات السكّوني على ما جاء في "الكشّاف"، قول الزّمخشرّي في تفسير قوله تعالى: ((ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ))³⁸؛ أنّه من العدل أن يُعاقب المسيء منهم، ويُنْثب المحسن، فعقّب السكّوني على ذلك بأنّ الزّمخشرّي بنى كلامه على قواعد اعتزاله، من أنّ المعتزلة يرون أنّ العباد يخلقون أفعالهم، فجعلوا الثواب والعقاب من العدل، تماماً كما جعله الزّمخشرّي³⁹.

الظاهر أنّ الزّمخشرّي، كغيره من المعتزلة، حينما يمرّ بآية لا تتفق مع مذهبه، فإنه يحاول جاهداً إبطال المعنى الظاهري لها، وإظهار دلالة أخرى للآيات بما يتماشى مع قراءات المعتزلة وآرائهم. وعندما يمرّ بآية تخالف مذهبه، أو أي آية أخرى في نفس الموضوع، فإنه يميل إلى تأويل الآية الأولى بما يتماشى مع الثانية، ما يُظهر ميله إلى إثبات النزعة المعتزلية⁴⁰. وعلى النقيض من ذلك للزّمخشرّي توجّه ونزوع فقهي محمودان، حيث يتعرّض

لقضايا فقهية تهم بعض الآيات القرآنية، ولكنه لا يتوسع فيها. كما كان معتدلاً وغير متعصب للمذهب الحنفي، ومن مميزاته التي أقرها السكوني في هذا الاتجاه اهتمامه بتفسير أوجه الإعجاز القرآني، وإظهار جمال النظم والبلاغة حتى أضحي مرجعاً في ذلك⁴¹.

رغم أن السكوني أقر للزمخشري بمهارته في اللغة والبيان، وعلو كعبه في البلاغة والإتقان؛ غير أنه أعاب عليه مزجه تلك اللطائف والتكت اللغوية بالآراء الاعتزالية بشكل بَيِّن، بل حذر المبتدئين والطلبة مما أودع في "الكشاف" من أنواع السموم⁴²! على حد وصفه وتوصيفه.

جاءت قضية القول بخلق القرآن الثابتة في أسس المعتزلة الخمسة على رأس أولويات السكوني في منافحته عن هدي السنّة والجماعة؛ لذلك أعلنها صرخةً مدويةً في صدر أول باب من أبواب كتابه، مصرّحاً ومحدّراً عموم المسلمين: "فاعلموا وقاكم الله البدع والفتن وجنبكم الأهوال والحن أن القول بخلق القرآن بدعة في الإسلام شنعاء، مخالفة لما عليه إجماع الأمة"⁴³.

وهكذا نجد السكوني كلّمًا فرغ من ردّ أشار إلى أنّه قد تقدّم إبطاله بالقطعيات، فلم ينفعه تصريحٌ بذلك ولا شبهاته، فكيف ينفعه تلويحه إلى ذلك وإشاراته⁴⁴؟ وفي الإطار ذاته سار السكوني في كتاب التمييز، حيث تعقّب عبارات الزمخشري وبَيِّن ما تضمّنته من اعتزالٍ يكون قد خفي على غير مُدركيه، مرتبطٍ بالأصول الخمسة التي عليها مدار الفكر الاعتزالي، مردّدا القول بشأن تلك العبارات بأنّها "إطلاقات غير جائزة"⁴⁵.

الحقيقة أنّ تحذير السكوني لم يقتصر على الزمخشري وأفكاره فحسب؛ بل شملت أيضاً نظراءه من المتكلمين، وأكثر من ذلك تعدّت إلى أعلام مغاربة وأندلسيين سافروا إلى المشرق وعادوا منه بتلك الأفكار! منهم ابن سعيد البلوطي الذي حذر منه السكوني في قوله: "وليُحترز أيضاً من مواضع في كتاب من كلام منذر بن سعيد البلوطي، فإنه دخل المشرق في زمان هيجان فتنة المعتزلة، فرجع إلى الأندلس وقد اعتلّ كلامه بالاعتزال، وخالطه فاسد آرائهم، فلذلك نبّهنا على التحرز من كلامه في المعتقد"⁴⁶. والتحذير شمل

المتأخّرين مثلما شمل المتقدّمين من المؤلّفين، من أمثال كتاب رسائل إخوان الصفا وكلام الجاحظ وإبراهيم النظام وابن الراوندي ومعمّر بن المثنى وغيرهم من أساطين الاعتزال.

المبحث الرابع

إرث "الكشّاف" بمعزلٍ عن الخلاف

تألّفت كتابات أهمّ الأعلام المغاربة - كما المصريين - على إنزال جار الله الزّمخشرّي منزله العلمي الصّرف اللائق به؛ ولا غرو حينئذ أن نجد الإجماع من لدن هؤلاء على وسم صاحب الكشّاف بصفات حسنة، من قبيل: أنّه ممّن تُشدُّ إليهم الرّحال في فنوهم، المتميّزين بسعة العلم وكثرة الفضل وجودة القريحة والتفنّن في البلاغة والإعجاز. وأيضًا الدعوة إلى الإفادة من كتاب "الكشّاف" بصورة خاصّة للرّاسخين في العلم والمذهب من المغاربة والأندلسيين، دون سواهم من المبتدئين.

المطلب الأول: ابنُ خلدون ونظرته المتوازنة للكشّاف

لم يمضِ العلامة ابنُ خلدون في مقدمته قُدّمًا دون الإشارة إلى مرجعية الزّمخشرّي الاعتزالية، يقول في مقدمته: "والصنف الآخر من التفسير هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب... ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفنّ من التفاسير كتاب الكشّاف للزّمخشرّي، من أهل خوارزم العراق، إلّا أنّ مؤلّفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحجّاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار ذلك للمحقّقين من أهل السّنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قَدَمه في ما يتعلّق باللسان والبلاغة... وإذا كان الناظر فيه واقفًا مع ذلك على المذاهب السّنية مُحسّنًا للحجّاج عنها، فلا جرّم إنّّه مأمون من غوائله، فلتُعتنَم مُطالعتُه لِغِرابَةِ فنونه في اللسان"⁴⁷. وهكذا درج ابن خلدون في ميزانه؛ بين الاحتراز تارة والإبراز تارة أخرى.

من باب العرفان بفضل الزّمخشرّي على البلاغة والبيان، وتقدّمه في ذلك الفنّ على أقرانه وأمثاله تقدّمًا بيّنًا؛ جزم ابن خلدون بأنّ تفاسير المتقدّمين عنه غفلت عن توظيف

الإعجاز البلاغي، حتى ظهر الزّمخشري وانفرد بذلك الفضل عن جميع التفاسير، رغم تأييده عقائد "أهل البدع" عند اقتباسه من القرآن بوجوه البلاغة. لذا وجب على المتلقّين المتمكّنين من أهل السّنّة النظر والإفادة من ذلك التفسير للظفر بشيء من الإعجاز، مع السّلامة من البدع والأهواء⁴⁸.

المطلب الثاني: "الكشّاف" إرثٌ لما ينقضي

كان الإمام ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت703هـ/1304م) صاحب "الذيل والتكملة" من المغاربة القلائل الذين قطعوا الخلاف بمشروعية الاختلاف؛ حيث أشاد بكتاب الكشّاف وتجاوز واجب التحفّظ، منوّهاً أنّه مُترعٌ فوائد، ومشحونٌ غرائب علمية لا توجد مجموعةً في كتابٍ غيره ألّفته، سوى ما اختصّ به من كثيرٍ ما احتوى عليه من التنبيه على حسن نظم القرآن العظيم، والإرشاد إلى بديع رصفه، والكشف عن وجوه إعجازه... ولكلّ ذي عقلٍ اختياره⁴⁹.

كما نحّا المقرّي التلمساني - وهو الحافظ الرحّالة الخبير بميول المشاركة - نحو ابن خلدون في ضرورة الانتفاع بالكشّاف بقطع النظر عن موضع التّهمة فيه، وبغضّ النظر عن الجدل القائم حول رجوع الزّمخشري عن ذلك آخر أيامه؛ مُجيزاً إقبال الأئمة المغاربة على الكشّاف في عهده⁵⁰.

أخيراً ما أعدّل شهادة الفقيه أبي زكرياء يحيى بن منصور التونسي، التي أثّنت عليها بالمناسبة العلامة ابنُ مرزوق التلمساني، ذلك لأنّ صاحبها طابَق بين تمكّن الإمام الزّمخشري في الفصاحة والبيان، وبين ما غلب عليه من أفكار المعتزلة⁵¹:

عَجَبًا لِحَبْرِ فِي الْبَلَاغَةِ ذَائِقِ عِلْمِ الْفَصَاحَةِ فَرَدَهُ وَمُؤَلَّفَهُ
 جَمَعَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ مُكَشِّفًا أَسْرَارَ قُرْآنٍ بِأَكْمَلِ مَعْرِفِهِ
 وَأَضَلَّهُ اللَّهُ الْعَظِيمُ فَرَاغَ عَنْ سَنَنِ الصَّوَابِ وَحَادَ عَنْهُ وَحَرَّفَهُ
 فَأَحَقَّ قَدْرَهُ حَادِثٍ وَأَحَالَ رُؤْيَاهُ وَاجِبٍ أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صِفَهُ
 مَا ذَاكَ إِلَّا فِعْلُ قَهَّارٍ بِهِ قَوْمٌ دَوُّوا رَشْدٍ وَقَوْمٌ فِي سَفَهُ
 وَاللَّهُ أَسْأَلُ رَحْمَةً لِّجَمِيعِنَا وَدُخُولَنَا فِي مَنْ حَبَاهُ وَشَرَّفَهُ
 مُتَوَسِّلِينَ بِأَحْمَدٍ خَيْرِ الْوَرَى صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا نَطَقْتُ شَفَهُ

إنَّ أقدمَ مخطوطة لمصنّف الكشاف مؤرخةٌ في سنة 542هـ/1148م، أي بعد أربع سنوات فقط من وفاة الزّمخشري وأربعة عشر عامًا من انتهائه من تفسيره في مكّة المكرّمة. تشير هذه الاستمرارية في النسخ إلى أنه لم تكن هناك أية فترة توقّف فيها نسخ تفسير الزّمخشري رغم تقلّبات الزّمان، حيث كانت تتمّ إعادة إنتاجه باستمرار في العواصم الكبرى للعالم الإسلامي، بما فيها حواضر الغرب الإسلامي⁵².

خاتمة:

لم يَغْمِطْ الإمام أبو علي السكّوني على جار الله الزّمخشري غير مذهبه في الاعتزال الذي أصبح لأهل المغرب منه موقفٌ حادٌّ؛ أمّا ما عدا ذلك فقد كان ممّن يُضرب به المثل في زمانه في علم الأدب والنحو واللغة، ومّن نقموا على الزّمخشري سوء فعالة العقديّة، قدّموا ذكر محاسنه اللغوية.

نَحْنُ الإمام السكّوني في معرض تقييمه للكشّاف منجّى نقدًا بقصد تثبيت العقد الأشعري، والمنافحة عنه بطرائق شتى، لقد كان لعمل السكّوني صدًى جليّ على الدرس العقدي بالغرب الإسلامي، ونال تقديرًا وثناءً ممّن جاء بعده من العلماء، ومنهم الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وغيره...

لا يُعْقَلُ أَنْ يُبَدَّ تَفْسِيرٌ بَيَانِيٌّ إِعْجَازِيٌّ مِثْلَ "الْكَشَّافِ" وَرَاءَ ظُهُورِ الْمُتَلَقِّينَ بَرِيَّةٍ مَا اعْتَرَاهُ مِنْ اعْتِزَالٍ؛ بَلِ الْحَرِيُّ أَنْ يَخْضَعَ لِمِيزَانِ النِّقْدِ الْمُنْطَقِيِّ، تَمَامًا مِثْلَمَا اهْتَدَى إِلَى ذَلِكَ

السكوني في تمييزه، فيميّز بذلك باب الصواب. وإتّما يتأتّى ذلك بإتاحة الدراسات العلمية الرصينة حول هذا العمل ذائع الصيت، وإعمال المنهج البحثي الموضوعي للإفادة من مُكتنزاته المكنونة.

المراجع:

- 1- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001م، ص719.
- 2- عزيز أبو شرع، الفكر الاعتزالي في الغرب الإسلامي في القرنين السابع والثامن دراسة في الاستقبال النقدي لكتاب (الكشاف) للزمخشري، مجلة التفاهم، مايو 2020م، مسقط، ص237.
- 3- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص604.
- 4- أبو علي عمر السكوني، المختار من كتاب لحن العاثة والخاصة في المعتقدات، شركة دار المشاريع، ط 1، بيروت، 2005م، ص62.
- 5- ترجمة الشيخ أبي القاسم محمود جار الله الزمخشري مبسوط في أمهات كتب التراجم والسير؛ مثل: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج5، ص168. العبر للذهبي، ج4، ص106. الجواهر المضية للحنفي، ج2، ص162. بغية الوعاة للسيوطي، ج2، ص279. إنباه الرواة للقفطي، ج3، ص265. معجم المؤلفين لكحالة، ج12، ص186. الأعلام للزركلي، ج7، ص178. تاج التراجم للسودوتي، ص71.
- 6- Ridvan Xhaferi, Qur'anic Exegesis, Sources and Methodology in Zamakhshari's "Al-Kashshaaf" Tafsir, International Journal of Humanities Social Science and Management (IJHSSM), Volume 4, Issue 4, Jul-Aug, 2024, p1166.
- 7- Jaffar taleb hussain, The Methodology of Zamakhshari and Bent Alshatee in their Interpretation (Scouts and Graphical Miracles) is A Parallel Study, Science International, Special Issue, Lahore, July-August, 2014, p92.
- 8- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق، عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998م، ص30.
- 9- أبو عبد الله محمد الأنصاري المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، إحسان عباس وآخرون، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2012م، مع01، ص223.
- 10- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عباس، تحقيق وتعليق، مصطفى السقا وآخرون، ط 1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1942م، ج3، ص299.
- 11- عزيز أبو شرع، المرجع السابق، ص245.
- 12- شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 2005م، ج5، ص170.

- 13- يعني ابنُ خلدون شرفَ الدين الحسين بن محمد الطيبي، وكتابه المقصود هو "فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب"، وهو حاشية الطيبي المذكور المطبوعة والمحقّقة على الكشف.
- 14- ابن خلدون، المصدر السابق، ص 556.
- 15- المقرّي التلمساني، المصدر السابق، ص 283.
- 16- في تعداد تلك الردود والتعليقات والحواشي والتخریجات على "الكشّاف"؛ يُنظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مج 02، ص 1475 وما بعدها.
- 17- المقرّي التلمساني، المصدر السابق، ص 300.
- 18- نفسه، ص 301.
- 19- المقرّي التلمساني، المصدر السابق، ص 293.
- 20- أبو علي عمر السكّوني، التمييز لما أودعه الزّمخشرّي من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق، يوسف أحمد، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ج 01، ص 206.
- 21- محمود بن عمر الزّمخشرّي، المصدر السابق، ص 11.
- 22- أحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م، ص 301.
- 23- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م، ج 03، ص 47.
- 24- أحمد بابا التنبكي، المصدر السابق، ص 301.
- 25- إسماعيل باشا البغدادي، هُدَيّة العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955م، ج 01، ص 788.
- 26- حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 1883.
- 27- إسماعيل باشا البغدادي، المصدر السابق، ص 788.
- 28- محمد محفوظ، المرجع السابق، ص 49.
- 29- عمر السكّوني، التمييز، المصدر السابق، ج 01، ص 16.
- 30- عمر السكّوني، التمييز، المصدر السابق، ج 01، ص 188.
- 31- حاجي خليفة، المصدر السابق، ص 1482.
- 32- عمر السكّوني، التمييز، المصدر السابق، ج 01، ص 200.
- 33- المقرّي التلمساني، المصدر السابق، ص 299.
- 34- الأنصاري المراكشي، المصدر السابق، ص 224.
- 35- أحمد بابا التنبكي، المصدر السابق، ص 632.
- 36- عمر السكّوني، المختار، المصدر السابق، ص 59.
- 37- محمد محفوظ، المرجع السابق، ص 49.

38- سورة آل عمران، الآية 182.

39- عمر السكّوني، التمييز، المصدر السابق، ج02، ص68.

40- Jaffar taleb hussain, Op.cit. p92.

41- Ibid. p94.

42- عمر السكّوني، التمييز، المصدر السابق، ج01، ص184.

43- نفسه، ص185.

44- نفسه، ص197.

45- نفسه، ج02، ص51.

46- نفسه، ص58.

47- ابن خلدون، المصدر السابق، ص555.

48- نفسه، ص763.

49- الأنصاري المراكشي، المصدر السابق، ص225.

50- المقري التلمساني، المصدر السابق، ص283.

51- نفسه، ص301.

52- Ridvan Xhaferi, Op.cit. p1167.